القصيدة المضحكة

لا بُدَّ أن تمضي
ظلامك حالكٌ ؟
لا بأس،
مُدَّ يديك في حذرٍ
وحاول أن تصيخ القلب
حدِّقْ بالأصابع
وَلْتَكُنْ أذناكَ
في هذا الظلام عصاك

لا !
ما أنت بالأعمى
ستفهمني
ظلامك دامسٌ
وعليك أن تمضي
لديك رسالةٌ
والنورُ في عُلب العرائس أنت تفهمني
تَقدَّم !
بترتك طائرةٌ بريش جناحها
ابصرت لحمك طائرا
ترتجُّ في منقاره الدمويّ سنبلتان
واحدةٌ لطفلٍ جائعٍ
سقطتْ على أبويه جدران المخيَّم
وَلِشَعْرِ من أحببت سنبلةٌ
تَقدّمْ
نضجتْ سنابلك اليتيمة في جهنَّمْ
لا بدّ أن تمضي

سمعتك صارخاً من قاع موتك:

أقبلوا

أو فارحلوا

فرّجتُ كربتكم نهاراً

أقبلوا

أو فارحلوا

سرّيتُ عنكم في الليالي

ووهبتكم نصراً

وما حمّلتكم عبءَ القتالِ

يا أيها الموتى بلا موتٍ

تعبتُ من الحياة بلا حياةِ

وتعبتُ من صمتي

ومن صوتي

تعبتُ من الرواية والرواةِ

ومن الجناية والجناةِ

ومن المحاكم والقضاةِ

وسئمتُ تكليس القبورْ

وسنمت تبذير الجياع
على الأضاحي والنذورْ

لا بدّ أن تمضي
عذابُك سيِّدٌ
ويداك جاريتان
في قصر الخليفةِ
أنت تدركُ
أنهم أخذوك ليلاً
كيِ يعودوا وحدهم ملء النهارِ
أتقولُ لي ؟
عفواً ،
كلامك رائعٌ
لكنّهم ماضون في القصف الاذاعيّ
انتبه !
لك أنت صاروخٌ حقيقيٌّ
وللأعداء صاروخ الحوارِ

وتقول لي ؟
الإخوة الأعداءُ يفترسون حلمكَ
مرةً أخرى
وأنت تقول لي
عفواً،
سمعتك مرةً أخرى
كلامك رائعٌ
أنا لم أقاطعْك
انتبه !
في الشرفة البيضاء قناصٌ
يسدّد نحونا حَجراً من الأنقاض
أَسْنِدْني
دوار البرّ يجرفني
الى بحر الدوارِ
ويداى جاريتان
ميتتان تحت جنود قيصرْ
وتقول لي ؟

أللهُ أكبرْ !

من وحشة الوادي القديمِ

طلعتَ مغتبطاً

تزيّن صدغك الدامي قرنفلةً

وتسطع في جبينك نجمةٌ حمراءُ

كان جوادك المجنون

يصهل عارياً في السهلكان النرجس المغرور

مأخوذاً بسحرك

زغردتْ بنتٌ من الشرفات

اجفلت الشوارع

واحتمى القناص ثانيتين

لم أُبصرك

قيل سقطتَ تحت اللوزة الخضراء

قيل تخضّبتْ عصفورةٌ خفقتْ بقربكَ

واحتمى القناص ثانية ،

وعادْ

لم أنسَ

قيل تداولتكَ رصاصتان
وقيل إن شظيّة
ثقبتْ على يدك الضمادْ ..
ڤيتو !
هنالك صيغةً غير التي تُروى
هنالك صورة من ساحة الاحداث
هُم قتلوا المصور
نحن نعرفهم
ونعرف لعبة الإعلام
ندرك ما يريدُ « العالم الحُر » .
المكبّلُ بالأساطير الحقيرة
نفهم الأعداء من ألفٍ إلى ياءٍ
ونعلم أنهم قتلوا المصوّر ضاحكين
أصخْ قليلاً قلبَكَ المشحوذ بالطلقات
ضحكتهُم ترفرفُ
نورساً فوق الخليج
وناقلات النفط تضحكْ

دعني أُقبّل

ـ يا حبيب الله والانسان ـ

جُرحكْ

فيتو !

ولي صُبحٌ يغادرني

كما غادرتَ صُبحكْ ..

يومان

أسبوعان

شهرٌ طافحٌ

عامان

قرنٌ

هل تعبتَ ؟

تعال يا ولدي

انا مهدت صدري

كي تريح عليه جُثتك الفتيّه

وتعال يا ولدي

لألقي رأسي المقطوع
بين يديك
قد أرتاح من موتي البطيء
على رصيف الأبجديّة
ألوردةُ الحمراء تقتلني
كما قتلتْك أنتَ البندقيّة !
ها هم هنالك
في خرائب جثتي يتجامعونْ
ها هم
تُفضّ بكارةً أخرى أمام عيونهم
تصطكّ في شبقٍ مفاصلهم
وتصهل مهرة الشهوات
تنفجر الأصابع والعيونْ
ها هم هنالك
جوعهم حنش
وأيديهم أظافرْ
ها هم هنالك

في المواطن والمنافي والمهاجر
يبكون في أعراس موتاهم
تهزّ الأرض دبكتهم
وتكتسح المنابر
ولنا التمزّق والتفجّر والجنونْ ..

سأعود أمس
أعودِ أمس من السفر
ويعود للغيم المطر
وتعود انت إليّ امس
تعود محمولاً على الأكتاف نعشا
وتعود أغنيةً وسنبلةً وعرشا
وتعود عصفوراً يرمم في خراب الأرض عشّا
وتعود
قنديلاً على الطرقات
منديلاً على الشرفات
أعراساً

ولاداتٍ
أُسَرْ

ولك القضاءُ

ولي القدرْ

لا بدّ أن أمضي
ظلامي حالكٌ
لا بدّ أن تمضي
ظلامك حالكٌ

الشمسُ من غربٍ إلى شرقٍ
وروحي في الفضاء جذورها انتشرت
وفي أعماق بئر النفط
أورق سرُّ موتي وازدهرْ
فاقطفْ ثمار الموت
يا ابن الموت
روحُك
في تراب الموت أنضجت الثمر

يا أيها البدويّ
أدركُ أننا روح موزعةً على جسدين
آدمُ حسرتي
حواءُ حزنُك
واحتراقُ يديك بين يديّ
أجناسُ البشرْ ..
يا أيها البدويّ
سوف نعود أمس
نعودُ ..
ما رضوان ؟
ما الجنّات تجري تحتها الأنهار ؟
ما الحشْر المباغتُ ؟
ما سَقَر ؟
لا بدّ أن أمضي
عذابي وردة
وفمي حجر ..

دونتُ عنواني
ورقم الهاتف السريّ
في سيارةٍ ملغومةٍ
ودفعتُها في البرّ
لم أحدس
بأن غزالةً زرقاء
سوف تلومني أبداً
قتلتُ حبيبها
ونثرتُ عنواني
ورقم الهاتف السريّ
في أشلائه
وقتلتُ سنبلةً ووردهْ
ونكصتُ مغموماً
وكنتُ أنا القتيل
وقاتلي ذئب خرافيّ
كساني الخَلقُ جلدَهْ !
كدّستُ أشلائي

وأشلاء العدوّ

(دماؤنا اختلطت)

وصورةَ منزلي المنسوف ظُهراً

والأضابيرَ الصغيرة والكبيرة

والتقاريرَ الوفيرة

والقرارات الخطيرة

والإدانات الكثيرة

والنداءات المريرة

كلها كدّستُها

مختومة بالشمع والقصدير

فوق سفينةٍ ملغومةٍ

ودفعتُها في البحر

لم أحدس

بأن «القرش» سوف يلومني

لا بأس

إن يدي على ظهري

وساقي في فمي

لا بأس
قلبي في الشوارعْ
طفل بلا أهلٍ
دُماهُ كثيرةٌ
يُتمٌ وآر. بي. جي
وجثة أخته الصغرى
وآلاف الخواجز
والجنائز
والمواقعْ
لا باس ،
قلبي في الشوارعْ
طفلٌ بلا أهلٍ
تطوّحه الزوابعُ في الزوابعْ

ويكون أن يغمى على الفولاذ
تخلعَ جلدها الأفعى
تراودَني قُبيل الضوءِ حَدْأة

ويكون أن يتضاءَلَ الزيتون
ثم يكونُ
أن يلدَ المدى شجراً من الإسمنت
ثم يكونُ أنَّ نيازكاً تنقضّ فجأة
ويظلُّ من صَدْعِ المسافة
ولدٌ تطوّحه الخرافة في الخرافه
ولدٌ يهوديٌّ صغير
نسيته في انقاضها الأفرانُ
واهترأت على أضلاعه الأسلاكُ
قُلتُ: أخي تصيرْ
ولدٌ يهوديّ صغير
في قلبه قمرٌ هلاميٌّ
وفي شفتيه أغنيةٌ
عن الناي المكسَّر في البراري
عن قطيعٍ مات راعيه الضرير
ولدٌ يهوديّ فقير
قاسمته خبزي وأزهاري

وأسراري
ولم أحدس
بأنّ «القرش» سوف يلومني يوماً
ولم أحدس بأن غزالةً زرقاء
سوف تلومني أبداً
ولم أحدس بأن أبي الفقير
يغتالُهُ
ملك يهوديٌّ صغير !

لا بأسَ
لي عينٌ على كفّي
ولي أنفٌ على رئتي
ولي شمسٌ بلا نورٍ ولا نارٍ
ولي أفقٌ يطلُّ على الضمير
وراءَه أفقٌ يُطل ..
ولا ضمير ..

مسكونةً بالحزن والحمّى
أزقّة قريتي اكتظتْ
برعبٍ فاجعٍ
تروي العجائزُ
أن أفعىً من بلاد الهند
تسكُنُ منزلاً في الحارة التحتا
وأنّ خراف إبراهيم
تثغو بعد نصف الليل في الطرقات
لم نخرجْ إلى الحارات
بعد غروب شمس الله
لم نشهدْ ليالي العُشر في الخلوات
لم نعبر بباب كنيسةِ البلد العتيقة
إنَّ جبرائيل يظهر في المساءِ على نوافذها
ويُحكى أنَّ .. يُحكى ..
وغبارُ نعلِ محمدٍ
- تروي العجائز -
صار تلّا عند عكا

وأنا أموتُ من اليقين
أموتُ
ثم أموتُ شكّا !

لا بدّ أن نمضي
اشتعلنا كالإطارات القديمةِ
في مداخل قريةٍ
للمرة العشرين داهمها الغزاة
لا بدّ من إكليل وردٍ طازجٍ
خرجَ الربيع إلى الشوارع
غاضباً
أحبابنا الشهداء في القبر الجماعيّ
استردوا موقعاً في الأرض
والتفتوا إلى ضوء الحياة
وتهدّجت صيحاتهم
طوبى لهم
طوبى

ونوغل في السباتْ

من أنتَ ؟
من هذا الذي هو أنت ؟
من نحن ؟
انتظرني يا مسيحي المنتظَرْ
لم يبقَ لي أحد سواكَ
وليس لي أحدٌ سوايَ
تعالَ
إن عناقنا الدمويّ فاتحة الحقيقة
وتعال
نبتدىء الخليقة

يا أيها البدويّ
لا تنظر وراءَك
لا نخيل ولا صهيل ولا وترْ
قيسٌ وليلى عاريان على ضفاف «السين»

«إل. إس. دي» نديمُها
وحزنُ «الهنك»
والشجن المكابرُ
والضجرْ
قمرٌ ؟ أتسأل عن قمر ؟
أو كَي.. «عَرَبْسات» القمر !

رابِطْ
ولا تنظر وراءَك
إن معقلَنا الأخيرَ هُنا ..
ومعقلُنا هنا ،
يمتدُّ من قبري لقبرك
رابطْ
على أنقاض سرّكْ
أجُل صلاتك للإله المعدنيّ
ألا ترى الخلل المعشّش في المحرك ؟
فجأةً تخبو الصلاةُ المعدنيةُ

يصمتُ التوربين

ياه !

زمنٌ يزلُّ الأنبياءُ على مزالقهِ

ويسقطُ في مكائدِه إلهٌ

ثم يسقط عن معابده إلهْ

ويسير فيه المؤمنون على الجباهْ

زمنٌ .. وآه !

فوضى

وطقسٌ لا يُعد دروسه سلفاً

وما أقسى الربيع بلا فراشٍ

تلك واحدةٌ ترفُّ

على ركام الحاجز المقصوف جواً

تلكَ واحدةٌ تُطلُّ برأسها من جُمجُمه

خللٌ يعشّشُ في الأماني

خللٌ يشرّشُ في الأغاني

خللٌ

دروبٌ مبهمة

خللٌ
قلوبٌ معتمهْ
خللٌ
دخانٌ في الدخانِ ..
لن يسمع القناصُ أغنيتي
ولن يرضى بغير فمي ملاذاً للرصاصه
هوذا هناك
وراء نافذةٍ محطمةٍ
يسدّد حزنه الوحشيَّ صوب ضراعتي
يمتدّ في منظاره شرهاً
ويوغلُ في جراح ضحيّةٍ أخرى
أراه هناك مصعوقاً
يحاول أن يصادف في دم القتلى خَلاصه
وأراهُ
يعرفني ويجهلني
ويعرفني ويقتلني
ويأخذ جثتي معه رهينه

فلعلهم يهبونه كفني
ولحم حبيبتي
ويدي
ومفتاح المدينه
أنذا أراهُ ،
ولا ضغينه ..
سبحان موتي وانبعاثي
في زغاريدِ الولادةِ
في الأناشيد المراثي
سبحان برقوقي المفتّح عارياً
ملءَ البراري
سبحان عصفوري المغرد
في حطام مجنزرهْ
سبحان جثةِ طفلةٍ
ذهبت تفتش عن أبيها
بين أطلالِ النهارِ
سبحان مجزرةٍ تخبّئُ وجهها في مجزرهْ

سبحان قمصاني التي اهترأتْ
ونيراني التي انطفأت
وأوطاني التي لجأتْ
وإنساني الذي انكفأتْ

على عينيهِ
أجيالُ التمزق والدمارِ
يا أيها الأحياء والموتى
أبوحِ ولا أبوحْ
ودمي يجلجلُ في شراييني
وتشتعل القروحْ
ويظلُّ لي جسدٌ
إذا جسدٌ مضى
ويظلُّ روحْ ..

بابُ المغارةِ موصدٌ دوني
سقوط نيازكي في ساحة الأقصى المبارك
كِلْمةُ السرِّ الأخيرةُ

دولتي شغفي بسنبلةٍ تميسُ على انبهار الفجر
أعلامي السنونوّاتُ
خَفْقُ الريح في الزيتون والسرّيس
كان نشيديَ القوميَّ من أزلٍ
إلى أبدٍ يظلّ نشيديَ القوميّ
آباتي البيادرُ
والمعاصرُ
والقناطرْ
وسلالتي
وَلَهُ العناصر بالعناصرْ
وسلالتي
حُلم يُعدُّ دروسَهُ
حلوٌ وشاطرْ ..

وأعود أمسِ من العواصفْ
وتعودُ أنتَ من القذائفْ
ويعود عفوُ الله والانسان

من غضب الزلازلْ
وتعود أيدينا المقطّعةُ
الموزّعةُ
الملوّعةُ
البعيدهْ
تبني المدارس والمقاهي والمنازلْ
تبني مدينتنا الجديده ..
صورٌ ملونةٌ
كلامٌ طيبٌ
خطٌ جميلْ
صحفٌ
إذاعاتٌ
سفاراتٌ
وزاراتٌ
قتيل
آخذٌ بيديْ قتيلْ

دولٌ

عواصمْ

قناصةٌ عُميٌ

مطاراتٌ

قطاراتٌ

عباءاتٌ

ملاءاتٌ

زعاماتٌ

مقاماتٌ

جماجمْ

عربٌ

يهودٌ

قوةٌ دوليةٌ

روم

أعاجمْ

ولجَ المهاجمُ في المُدافعِ
والمدافعُ في المهاجمْ

ولدٌ يحاصرُ أمَّهُ
أمٌّ تُغير على الولدْ
بلدٌ يهاجرُ في بلدْ

وعليّ أن أمضي
وأن تمضي
ونوغلَ في الأبدْ ..

حجراً على حجرٍ وينهضُ منزلُ
بين الركامِ، وينهضُ المستقبلُ

وتعودُ من لأي السُّفار حبيبتي
ويُعيد نضرَتنا الزمانُ الأولُ

هي تلك في أرض الردى تفاحةً
نضجتْ وسنبلةً تحنُّ ومنجلُ

وعلى التراقي زعترٌ وحقائبٌ
والبابُ يشهقُ والسياجُ يهللُ

ألعشبُ رهوٌ والسبيلُ مُمهَّدٌ
والشوق يُسرع والمدى يتمهّلُ

هي تلك بنتُ شرّعتْ شباكها
ملء الوجودِ وشاعرٌ يتغزّلُ

هي تلك، دنيا ودّعتْ أمواتها
واستقبلت أحياءَها واستَقْبَلوا

عفواً وهادَ الموت ! أنت جميلةٌ
لكنَّ قمّتنا الولادةَ أجملُ !

لا بدَّ أن تمضي
لكي أمضي
وأن أمضي
لكي نمضي
تعالَ إليّ
أغنيةً مفخَخةً
وصاعقةً رشيقهْ
وتعالَ
إنّ عناقنا الدمويَّ ،
فاتحةُ الحقيقهْ
وتعالَ
نبتدىء الخليقهْ !

١٩٨٥/٥/٢
الرامة ـ حيفا ـ برشلونه